فلا فائدة من الأخلاق والعلوم واليدوات ما دام القلب فارغاً من الله . وقد قلنا فى مقال « حرمة البيان » « ما هو الحق ؟ ما هو الشرف ؟ لولا الله ، كل المعايير ساقطة باطلة مبلبلة إذا لم تكن فى يده هو . . . كل الصدق كذب ... وكل الخير شر ، إذا لم يقله لنا هو ... ! »

لعمر الحياة لو كان الايمان كذباً لكان ألذ من الصدق ! وما دام الانسان يطلب السعادة والراحة فلماذا لا يطلبهما هنا ؟ لماذا يخطئ معنى دوامهما ؟ افرضوه كذباً ... فهل برئت حياتكم من الكذب ؟ إنها مجموعة أكاذيب مات منها حكماؤكم غيظاً أيها الناس !

إنه قياس أدركه الأقدمون واختار العقلاء منهم ما عبر عنه شاعرهم بقوله :

إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي فالخسار عليكما

وبما دمتم تقيسون قيمة الشيء بالمنفعة ، فأيما شيء أنفع من معنى الايمان فى حياتكم ؟ إنه أعظم معنى جلب النفع للبشرية . وقصة تقدم الانسانية هى قصة المؤمنين منها ؛ فانهم هم الذين تسلموا قيادها مرحلة مرحلة لأنهم أحسوا الايمان بالقيوم الأكبر فأحسوا الوصاية نيابة عنه على القطيع القاصر ، وحملوا أعباءه ونهضوا بها نهوض الجليدين الضليعين الذين لم يستول عليهم ضعف البشر لأنهم أولو العزم الذين فى قلوبهم ذلك المعنى الحديدى الذى لا يفلت منه شيء : وهو الصبر ! « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » فكل معانى شرف الانسانية شعب وفروع من تلك الأرومة

ولذلك لو تغيرت فكرة الالهية يجب أن تتغير موازين الخير والشر . ولكم فى ضمير الانسانية إيماناً عميقاً بالخير من غير سبب ظاهر، وكفراً عميقاً بالشر من غير سبب ظاهر؛ وقد أدى ذلك الفيلسوف الانجليزى « باركلى » إلى أن يأخذ من هنا برهانه على أن هناك عقلا أعظم قد أقر موازين الخير والشر في القلوب كما هما ، لأن الخير والشر عنده كذلك

« الرسالة » عبد المنعم خلاف

التعليم والمتعطلون فى مصر

للأستاذ عبد الحميد فهمى مطر

هناك غير ذلك حب التضحية والايثار ، وفى هذا يقول الله فى كتابه الكريم : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » وهذا يستلزم أن يمرن الفتى أو الشاب أو الرجل على عمل الخير والاحسان إلى الغير فى القول والعمل وأن يقلل من التفكير فى شخصه ومصلحته الخاصة . وأن يتصف عن العمل لنفسه فقط . وفى هذا يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « أحب لأخيك ما تحب لنفسك » ويقول سنيكا : « لو أعطيت الحكمة كلها لنفسى على أن أستأثر بها وأمنعها عن إخوتى بنى الانسانية لكرهت الحكمة »

ولا شك أن تمرين الانسان نفسه على حب غيره ومساعدته مع التقليل من حب نفسه يدفعه إلى الاحسان المستمر . وإلى البذل ثم إلى التضحية وإيثار غيره على نفسه . وهو أعلى مراتب السمو الانسانى .

ومن أحسن الامثال التى يمكن أن تضرب فى التضحية والايثار ما قرأناه عن أمة اليابان الفتية وإقدام أبنائها على بذل المهج والتضحية بالنفوس في سبيلها . من ذلك أن الحكومة أعلنت عن « طوربيد » اخترعه أحد المخترعين يستلزم دخول إنسان فيه يوجه إلى هدفه إذا ما قذف ، فاذا اصطدم بالهدف بارجة كان أو نسافة أو غواصة انفجر بمن فيه فتقتله فى الحال. ولكنه فى الوقت نفسه يفتك بهدفه فتكا ذريعا ثم أعلنت عن حاجتها إلى أربعمائة شخص لهذا الغرض المهلك . فتقدم إليها سبعة آلاف شاب يطلبون تلك التضحية عن طيب خاطر . وفي تاريخنا الاسلامى أمثلة كثيرة من التضحية والايثار فلقد ورد عن سيدنا على بن أبى طالب زوج فاطمة ابنة الرسول أنه قال لها يوماً : جهزى لنا طعاماً . فقالت : والله ليس عندى غير الماء . فقال لها : إذن أمسك اليوم صائماً . ثم قال لها فى اليوم التالى : جهزى لنا طعاماً يافاطمة. فقالت: والله ليس عندى غير الماء. فأمسك صائما ثم تكرر ذلك فى اليوم [illegible] . وفى اليوم الرابع خرج إلى السوق

فرهن بعض الأشياء عند يهودي واشترى بما أخذه من نقود دقيقاً وسمناً وعسلاً وأحضره إليها . فجهزت الطعام ولما جلسا للأكل دق الباب فقام فوجد رجلا يبكي فقال له: ما خطبك؟ قال: لي عشرة أيام لم أذق الطعام . فعاد فأخذ إليه ثلث الطعام . ولما جلس مع زوجه إلى الأكل دق الباب ثانية فقام فوجد امرأة ومعها طفل رضيع يبكيان فقال: ما خطبك ؟ قالت: لهذا الطفل اليتيم خمسة أيام لم يذق الطعام . فذهب فجاءها بالثلث الثاني من طعامه . ثم عاد فجلس مع زوجته للأكل فدق الباب ثالثة فذهب فوجد رجلا مسلماً كان قد أسره الكفار ثم هرب منهم ولم يتذوق الطعام منذ خمسة عشر يوماً فجاءه بالثلث الأخير من الطعام ، ثم خرج إلى المسجد جائعاً ، فوجد رسول الله جالساً فابتسم لما رآه وقال له : لقد أنزل الله فيك قرآناً قال : وما هو يارسول الله ؟ فقرأ « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً » فسر علي بذلك سروراً عظيما . وكان هذا نعم الغذاء الروحي . بأمثال هذه القصص والحوادث يجب أن يتعلم الناشئة كيف يكون البذل ، وكيف يكون الايثار

ثم هناك بعد ذلك تعويد الناشئ الاعتماد على النفس والتغلب على الصعاب بالمكافحة والمثابرة وهو خلق نجد شباب اليوم أشد ما يكونون حاجة إليه في معارك الحياة ومنافساتها القوية ، ويستلزم أن يمرن الفتى على الصبر على المكروه واحتمال المشاق والمثابرة على العمل فلا يتبرم إذا أخفق ولا ييأس إذا فشل . بل يتابع عمله ويستأنف جهوده مستبشراً بالمستقبل مملوءاً أملا وثقة بالنجاح والوصول إلى هدفه عاجلا أو آجلا مهما لقي من عنت أو إرهاق جاعلا نصب عينيه مثله العليا حتى يفوز بما يبغي . فقد قال نابليون بونابرت : « لامستحيل على قلب الشجاع » وإن أخوف ما أخاف على شبابنا ضعف العزائم وقلة الاقدام وعدم المثابرة . ولو أنهم قرأوا شيئاً من تاريخ المخترعين والمصلحين والمجاهدين . وما لقيه من عنت وإرهاق هؤلاء وأولئك من أمثال نيوتن وجاليليو وباستير وجان دارك ومصطفى كامل وفريد وسعد زغلول ؛ بل لو أنهم قرأوا ماالقيه صاحب الرسالة الاسلامية في سبيل دعوته من عنت وإرهاق واضطهاد وعذاب وتشريد لعرفوا حقا كيف تكون قوة الايمان وكيف تنجح المثابرة والصابرة

وتلك صفات إذا غرست في الفتى ، وتعهد المشرفون على تكوينه وتربيته تغذيتها وتقويتها بالمثل الصالحة أنتجت الانتاج المفيد المثمر ، وإن في قول العلامة بوفون « ليست العبقرية إلا الصبر الطويل » لدليل آخر على ذلك

وهناك فوق كل ما تقدم خلق آخر جدير بأن يعنى به العناية كلها في وقتنا الحاضر وهو خلق غير فردي ، بل خلق جمعي يبث بين الجماعات المكونة لطوائف مختلفة في سبيل مصلحة الجماعة وفائدتها . ذلك هو التضامن وهو الذي يقول فيه الحديث الشريف « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » ولقد أصبح هذا الخلق ضرورياً لمختلف الطوائف لأنه من الأمور التي يبني عليها نجاحها في معترك الحياة ، وإن طوائف العمال في مختلف الممالك لم تنجح النجاح الباهر الذي أدى بها إلى تسلم مقاليد الحكم كما حصل في انجلترا إلا بتضامنها وتعاونها وتساندها . وإن في اشتراك جماعات الطلبة في عمل واحد لا يقوى عليه فرد واحد منهم كما هو الحال في معظم أنواع الألعاب الرياضية لطريقة ناجعة تعودهم هذا الخلق المفيد . تلك هي الأخلاق التي يجب على كل والد أن يتولى غرسها في ولده ، كما يجب على كل مدرسة أن تتعهدها وتنميها وتشجعها في أبنائها . وإنه لما يؤسف له حقاً أن المدرسة الحالية توجه أشد عنايتها إلى الكتب ودراستها والمناهج واستيعابها وملء عقول التلاميذ بمحتوياتها ليؤدوا فيها الامتحان المطلوب منهم في آخر العام من غير أن تعنى العناية المطلوبة بتكوين النشء التكوين الخلقي الذي تتطلبه الحياة . يقول صمايلز في بدء كتابه عن الأخلاق « الأخلاق من أمهات القوى في هذا العالم . وهي في أبهى مظاهرها تمثل الطبيعة البشرية في أرقى أشكالها . لأنها تظهر الانسان وهو في أرقى خلاله ، ثم إن النوع البشري خاضع مسخر للرجال ذوي الكد والاستقامة المتشبعين بالأخلاق الراقية والأغراض الصادقة الخالصة، لأن الاعتقاد في مثل هؤلاء والثقة بهم والتشبه بأعمالهم خواطر في النفس . أولئك هم دعائم ما في هذا العالم من خير ، ولولاهم لكان الوجود في هذا العالم عبثاً ، ولئن كانت العبقرية تحرك الاعجاب فان الأخلاق ضامنة التوقير والاجلال . ذلك أن هذه منشؤها قوة العقل ، وهذي منشؤها قوة القلب ، والقلب عادة صاحب السيطرة في الحياة .

فالمبقريون فى المجتمع بمنزلة الدهن من الانسان ، وذوو الأخلاق بمنزلة الدمة . وبينا أولئك يعجب بهم إذ هؤلاء يهرع إليهم » وقال أيضاً : « كم من أناس لا يملكون من الدنيا سوى أخلاقهم ، وهم بفضلها كصاحب التاج المدل بتاجه ، وليست طهارة الأخلاق وحسنها من مستلزمات ذوى العقول المثقفة بالمعارف . فقد يجتمع التفوق العقلى والأخلاق السافلة فيذل المتعلم المثقف لذوى المقامات الرفيعة . ثم يتغطرس على ذوي المنازل الوضيعة » وقال جورج هربرت : « قليل من الحياة الصالحة خير من كثير من العلم والمعرفة » ثم قال سميلز فى موضع آخر» ليس الاستعداد العقلى ولا التفوق الذهنى ينادرين فى العالم، ولكن هل يعتمد على الاستعداد العقلى وحده؟ وهل يؤمن التفوق الذهنى ؟ كلا . اللهم إلا إذا رافقهما الحق فهو الخلة التى تضمن لصاحبها التبجيل والتعظيم ، وتحمل غيره على الثقة به ، وهو أساس كل فضيلة ، ويظهر فى معاملة المرء وسلوكه ، وهو الاستقامة والاخلاص فى العمل وله نور يسطع في كل قول وفعل، هو الباعث على ثقة المرء بنفسه والحامل للناس على الثقة به، والمرء ذو المكانة فى العالم هو الذى يصح الاعتماد عليه، هو الذى إذا قال إن له علماً بشيء كان عالماً به حقاً ، وهو الذى إذا قال إنى فاعل شيئاً فعله حقاً ، وهكذا يحصل الواثق بنفسه على ثقة الناس به واعترافهم بقيمته » وقال مرتن لوثر : « ليست سعادة الأمم فى كثرة أموالها ؛ ولا فى قوة استحكاماتها ، ولا فى جمال مبانيها وشاهق قصورها، إنما سعادتها فى أبنائها المثقفين ورجالها المهذبين الذين استنارت بصائرهم واستقامت أخلاقهم ، فهؤلاء قوتها الأساسية وعظمتها الجوهرية » فهل بعد هذا كله يحق للمدرسة أن توجه كل جهودها إلى الثقافة ودراسة ما فى بطون الكتب إعداداً للامتحان من غير أن تكترث بمادة الحياة الأساسية وهى الأخلاق ؟ وهل بعد هذا ننتظر من خريجى مدارسنا أن يقوموا على العمل ، وأن يسيروا فى حياتهم السيرة الحميدة المطلوبة وقد أهملتهم هذا الاهمال

اهمال المدرسة لهذا الواجب ونتائجه

وإنى لا أستطيع أن أفسر إهمال المدرسة فى تقوية أخلاق النشء والعمل على تكوينهم تكويناً خلقياً عالياً الا بأمور ثلاثة :

الأول : اندفاع المدرسة فى تيار السياسة التعليمية التى رسمت لها عملياً من قبل وجعل النجاح فى الامتحان فى نهاية العام الدراسى هو الغاية التى ليس وراءها غاية من غير أن يفكر ولاة الأمور وقادة التعليم فينا تفكيراً جدياً عميقاً فيما يستدعيه الاصلاح الحقيقى للمدرسة وما يناسب مع نهضتنا الجديدة وقوميتنا

الثانى : صعوبة ما يستدعيه العلاج الخلقى المدرسى من درس وفحص وتمحيص وما يستلزمه من مرونة فى العمل وعدم الوقوف عند الخطة الآلية التى تسير عليها المدرسة الحالية من حيث قياس الأعمال بالدرجات في الامتحانات ونتائجها . وما يستدعيه فوق ذلك من السلطة المركزية من الديوان العام إلى أيدى المشرفين الفعليين على المدارس . وهو الأمر الذى لا زال يقاوم إلى اليوم

الثالث : عدم ثقة القابضين على زمام الأمر فى الوزارة بالمشرفين على المدارس والقائمين بالأمر فيها مما حال بين أولئك وبين ثقة غيرهم بهم . فأدى ذلك إلى انحطاط مستوى رجال التعليم الأدبى ونفوذهم فى الهيئة الاجتماعية وفي هذا ما فيه من النزول بالمدرسة إلى مستوى لا يليق بها .

من أجل هذا أهمل تكوين الخلق فى المدرسة فانحطت الأخلاق العامة وتدهورت وصرنا اليوم نواجه فى شبابنا حالة سيئة لا يرضاها وطنى محب لبلاده : نرى شبابنا عاطلا خلوا من حب المغامرة والاقدام والنزول إلى ميدان العمل والكفاح فى الحياة مليئا بأنواع الخنوثة والطراوة ، وعدم القدرة على المثابرة والنضال واتجه همه إلى العمل ببعض عادات الفرنج التى أصبح كثير من الفرنج يستقبحونها ويمقتونها كالخلاعة والرقص وحب اللهو والدعارة، وصار أحب شيء إليه التأنق فى اللبس وارتياد محال اللهو والفجور والتهتك فى الطرقات ، وارتكاب المحظورات والمحرمات ، والعمل على الحصول على المال اللازم لذلك بالتدليس والغش والنصب والتزوير والاحتيال، مع الخروج على المبادىء العامة المقررة فى الأسرة والمدرسة، فالصغير يريد أن يرغم الكبير على الاستماع لأمره وتنفيذ رأيه ، والتلميذ يرغب فى أن يقود أستاذه وناظر مدرسته كما يشاء هواه . وقد ساعده على ذلك ما نعرف نحن كما يعرف غيرنا من رجال التعليم من مآس كثيرة وقعت فى المدرسة بسبب أخطاء خلقية كبيرة ارتكبها الطلبة

وأرادت المدارس أن تقمعها بالعقوبة الرادعة ولكن الوزارة عن طريق الشفعاء السوء كانت تهمل رأى المدارس بل كانت تجبرها أحياناً على القيام بعكس ما تراه بالانتصار للمخطئين والخارجين على حدود الآداب والفضيلة مما أدى فى بعض الأحايين إلى نقل ناظر المدرسة أو بعض المدرسين الذين لا يروق لهم ذلك .

ولم يقف الأمر عند المدرسة بل انتشرت الفوضى الخلقية انتشاراً مخيفاً يشفق على هذه الأمة منه عقلاؤها . ويكفى أن ندلل على تمسك الكثيرين من المتعلمين بأهداب الفضيلة وكرم الأخلاق مما يقع تحت حسنا ونظرنا فى المجتمع المصرى فى كل يوم وفى كل لحظة : فهلا سمعت برجل الصحافة الذى يهاجم أشراف الناس وأبرياءهم ، وهم هادئون آمنون فينهش أعراضهم ، ويقذفهم بأشنع التهم وأخس السباب ، حتى إذا ما استدعاه أحدهم ونقده الجنيه أو الجنيهين ، انقلب فى يوم وليلة مادحاً له معتذراً عما سلف منه بمختلف الأعذار السخيفة ، فاذا ما نفحه شيئاً جديداً بعد ذلك كال له من المدائح ما يجعله فى مصاف الأبطال والمجاهدين ؟

وهلا سمعت بذلك الموظف الذى يدين بمركزه الكبير لوزير من الوزراء فتراه يتردد على منزله كل يوم ليقدم له فروض الطاعة والولاء وليقوم بخدمته فى كل ما يطلبه منه مهما جل أو قل ، ثم هو فوق ذلك يخضع لهواه فى كل صغيرة وكبيرة مهما كلفه ذلك من الشطط والانحراف عن جادة الحق والعدل ، فاذا تبين منه قليلا من الانتقاد أو الامتعاض من موظف آخر صغير لسوء فهم أو التباس فى أمر أسرع فأنزل به السخط وألبسه ثوب الذل وصادره فى رزقه وكرامته مهما كان ذلك الموظف الصغير مخلصاً فى عمله مؤدياً لواجبه مستقيماً فى حياته محتفظاً بكرامته . والأدهى من ذلك أننا نجهد ذلك الموظف الكبير الذى ظل الناس وداس كرامتهم متابعة لهوى سيده ينقلب فى طرفة عين عليه إذا ما زحزحت الظروف ذلك الوزير عن مركزه ، وحل محله غيره يخالفه فى الرأى . فموظفنا العظيم لا ينقطع عن زيارات سيده السابق ولا يقطع علاقته به فحسب ، ولكنه فوق ذلك يتحامل عليه وعلى أعماله أمام سيده الجديد إرضاء له ، وهو فوق ذلك يحاربه بكل قوة ، وينقلب عدواً لدوداً له . وبذلك يكسب عطف سيده الجديد ويضمن الرقى على يديه . وهل بلغك خبر ذلك المحامى النابه الذى يوكله أحد المتقاضين فى قضية له ، وينقده نصف الأجر ظاناً أنه سيعمل فى صفه بأخلاص ، فاذا به يتصل بالخصوم ، ويأخذ منهم من المال كل ما تصل إليه يده ليهمل فى حقوق موكله فتضيع عليه حقوقه ؟ وهلا قرأت فى الجرائد اليومية حيل المحتالين والنصابين وحوادث التزوير والتدليس ، والاعتداء على العفاف والطهر مما يتزايد ضرره كل يوم وتملأ به الجرائد صفحاتها ومع ذلك فهناك فوق ذلك والأسفاه كثير مما لا يصل إلى تلك الجرائد ! هذه بعض الحال السيئة التى وصلنا إليها ، وهى تنخر فى عظام الأمة نخرا ، بينما قادتنا وساستنا لاهون عنها ، مع أن معظمهم قد ذاق الأمرين منها وانكوى بنارها ، فجدير بهم أن يعنوا بها قبل عنايتهم بأى أمر آخر مهما كان هاما . وإنى لا أرى محلا للعناية بها وإصلاحها غير المنزل أولا ، والمدرسة ثانيا ، وإذا كان المنزل أساسه وقائده وحاكمه هو المرأة ، وتربية المرأة متوقفة كذلك على المدرسة ، فقد صارت المدرسة عندنا هى الحجر الأساسى فى تكوين الأخلاق وإصلاحها .

يقول سميلز فى كتابه الأخلاق : « وهكذا اضمحلت رومة ثم لحقها الدمار لما عم أبناءها فساد الأخلاق ، واستولى عليهم حب اللهو والخمول ، حتى كانوا فى أواخر أيامهم يرون العمل لا يليق إلا بعبيدهم . أمسك أبناؤها عن التحلى بما تحلى به آباؤهم الأولون من فضائل الخصال فسقطت الدولة ولم تكن أهلا للبقاء . وهكذا تسقط الأمم الخاملة المنهمكة فى اللذات ، الرانة فى بحبوحة الترف ، والتى تستنكف العمل الصالح ، تسقط لاعالة ويخلفها فى عظمتها الأمم الحية العاملة » ثم يقول فى موضوع آخر « ومجمل القول أن سلامة الأمم والحكومات تتوقف على سلامة الأخلاق ولن تكون أمة عظيمة من أفراد فاسدى الأخلاق ، مهما لاحت عليهم آثار الحضارة والرقى . ولكنهم لا يلبثون أن يتلاشوا متى صادفتهم عقبة أو غشيتهم شدة . ولن يكونوا ذوى قوة حقة ورابطة متينة وسلامة تامة إلا إذا اتصف كل فرد منهم بالصفات الجميلة والخصال الحميدة والأخلاق الفاضلة » .

عبد الحميد فهمى مطر